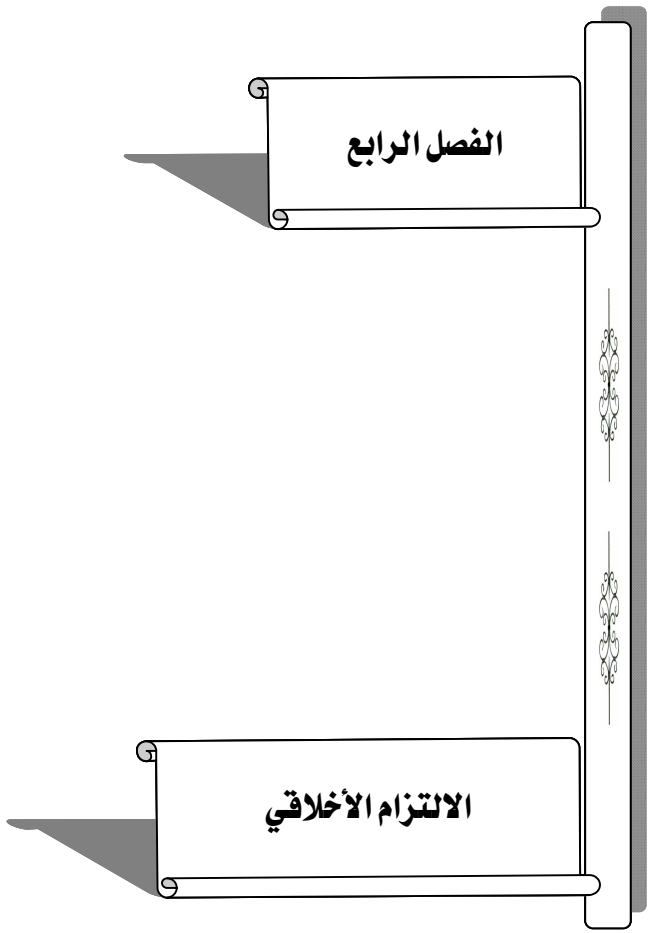
الفصل الرابع
الالتزام الأخلاقي

الالتزام الأخلاقي

أي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم لا بد من أن يستند على فكرة الإلزام ؛ لأنها الأساس الجوهري والمحور الذي يدور حوله النظام الأخلاقي كله ، وغياب فكرة الالتزام يؤدي إلى انعدام روح الحكمة العملية ومادتها . لأنه إذا انعدم الإلزام انتفت المسئولية ، وبانتفاء المسئولية لا تتحقق العدالة ، بل يسود الاضطراب والفساد والفوضى – لا من حيث الناحية الواقعية فحسب – ولكن من الناحية القانونية ." [1]

سلم القيم الإيجابية والسلبية

إن الالتزام الأخلاقي في القرآن الكريم مشروط بشرطين : أن يكون العمل المستهدف في حدود الاستطاعة البشرية بوجه عام (أي خاضعاً لإرادة الإنسان) وأن يكون ميسر التنفيذ في الحياة الواقعية . ولا يكفي أن يتصف بأنه ممكن وعملي ليدخل في عداد الواجبات . وإنما سوف نرى سلماً من القيم الإيجابية والسلبية ، مرتباً ترتيباً دقيقاً وحكيماً .

فإذا تجاوزنا الواجبات الأولية التي لا خلاف حولها (مثل الصدق وأداء الأمانة ونجدة الغير) سيظل أمام الفضيلة " الخلاقة " و " البناءة

([1]) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " تلخيص وإعادة صياغة وإعادة ترجمة محمد عبد العظيم علي دار الدعوة الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص ٨

" ميدان واسع لدرجات لا نهاية لها من الأعمال " الممكنة " و" العملية " و " العملية " فهل نلتزم بها جميعاً . أم نكتفي ببعضها وبعبارة أخرى هل " الخير " و " الواجب " فكرتان متطابقتان ؟ ألا توجد فوق الواجب درجات متصاعدة في الثواب ويجوز التغاضي عن بعضها دون ارتكاب عمل غير أخلاقي ؟ وإذا استفتينا الضمائر الفردية عنها فسوف تتنوع الإجابات ، فبينما النفوس ذات العزيمة تضع واجبها في أعلى درجات الكمال وتجمع بذلك بين الواجب والخير ، نجد العامة تتوقف عند أقل سمواً وتحدد واجبها عند النحو الأدنى .

ونتوجه للذين يوسعون دائرة الواجبات حتى تضم كل مجالات الخير ويرغبون أن يجعلوا أعلى درجات الكمال في كل مجال ، واجبات إلزامية ملحة ، ونسألهم هل يعتبرون مجموع هذه الكمالات واجباً على كل فرد ؟ (وإن كان فوق الطاقة البشرية) أم يتركون للفرد حرية اختيار مجال الكمال الذي يريده ؟ (وإذا استنفدت إحدى القيم جهد الإنسان كله فأهمل سائر القيم الأخرى هل يرون في هذا إشباعاً لحاجة أخلاقية ؟).

إن الكائن البشري مركب من علاقات متعددة ، منها الحيوية والشخصية والأسرية والاجتماعية والإنسانية والربانية .. أي أنها مجموعة متكاملة ومترابطة ومتماسكة كلها مؤهلة للتطور والتقدم ، وليس من الممكن إهمال إحداها إلا على حساب زعزعة أو تشويه أو تمزيق " أحسن التقويم " الذي خلق الله الكائن الإنساني عليه .

والحاسة الأخلاقية تقتضي ارتقاء كل مجموعة ككتلة واحدة والسمو بها جميعاً في نفس الوقت حتى مستوى معين إذ " يتحتم على الإنسان أن

يمارس كل القيم بلا استثناء قبل أن يتخصص في إحداها " وهو المفهوم الإسلامي للواجب " إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقّاً ، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيكَ حَقّاً، وَلأَهْلِكَ عَلَيكَ حَقّاً ، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ " [البخاري] (١)

على الإنسان أن يؤدي الفروض الواجبة عليه وهذه الفروض تشمل جميع كيان الإنسان : الروح ، والقلب ، والعقل ، والنفس ، والبدن ، كما أنها تشمل أصحاب الحقوق علينا : ربك ، وأهلك ، وزجك ، ونفسك ، و... أو كما قال د. عبد الله دراز تلبي جميع الجوانب الربانية والإنسانية والاجتماعية ، والأسرية ، والحيوية ... فالصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، والزكاة ، والحج ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم، ونفع الناس وحسن معاملتهم ، وتقديم خدمات للمجتمع ، والقيام بواجبات الأسرة : نفقة ، ورعاية ، ومودة ورحمة ، والقيام بحق البدن : من راحة وترويح ورعاية صحية ... فإذا أدَّى الإنسان ما عليه من واجبات وفروض إلهية وأراد أن يستزيد من أعمال البر والخير فإنه يتقرب إلى الله بأداء بعض السنن والمندوبات بحيث لا تُخِلُّ بالفروض والواجبات ، فالفروض هي الحد الأدنى الذي يجب على الإنسان فعله ، والمحرمات هي الحد الأدنى الذي يجب الانتهاء عنه وهناك مجالات للترقي بفعل السنن واجتناب المكروهات كل بقدر إيمانه وحبه لله تعالى ، وبقدر طاقته وقدرته .

يقول عبد الله دراز : " بين المفروض والمُحرَّم يوجد غير المُحرَّم وحتى في المفروض يفرِّق القرآن الكريم بين ما هو " واجب رئيسي "

(1) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ٢٦ ، ٢٧ .

و " وجبات أخرى " ويليها " الأعمال المتدرجة صعوداً في الثواب " . أما في " المحرم فيحدد القرآن الكريم " الكبائر " وبعدها السيئات الأخرى ، الكبير منها والصغير .. وعلى نفس المنوال ، يوضح درجتين في الأعمال غير المحرمة منها " المسموح به " و " المتغاضى عنه " .

وآن أن أنتساءل عما إذا كانت أدق العقول وقدرها على التنويع ، تستطيع أن تضيف شيئاً إلى هذا التدرج في القيم . ولقد حاولنا دون جدوى أن نعثر على ثغرة .

وكلمة عن مغزى هذا التدريج فيما يختص بكل من " المباح " و " المَعْفُوُّ عنه " نقول إن المباح في القرآن يتعلق بأعمال لا تدخل في مجال الأخلاق .

أما المَعْفُوُّ عنه فيجب أولاً ألا نعتبره رخصة التهاون في أخلاق الأفراد أو ميولهم ونزواتهم . وإلا فسوف يعد ذلك إنكاراً للأخلاق ذاتها ، ولهذا نجد القرآن يقف موقفاً لا يتزعزع ، ويحثنا على أن ننتصر بأي ثمن على ميولنا ورغباتنا الجامحة وعدم الانصياع لها . ﴿وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص:٢٦] {فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء:١٣٥] ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [القصص:٥٠] فعلينا أن نختار إما طاعة الله وإما اتباع الهوى . ولهذا يكون " المَعْفُوُّ عنه " من أجل مراعاة الواقع المحسوس الذي يتم فيه نشاطنا دون أن نبلغ حد إلغاء جهدنا وإعفاء أنفسنا من الواجب ، وهكذا نجد أن لطف الشريعة لا يستهدف تقليل الجهد وإنما ترشيده أي إرساءه على أساس عقلي ." [1]

([1]) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ٢٩ ، ٣٠ .

علاقة الأخلاق بأصحاب الحقوق علينا

أصحاب الحقوق علينا أربعة أقسام : الله تعالى ، والناس ، والأحياء غير الإنسان ، والنفس .

القسم الأول : ما يتعلَّق بوجوه الصلة القائمة بين الإنسان وخالقه .. والفضيلة الخلقية في حدود هذا القسم تفرض على الإنسان أنواعًا كثيرة من السلوك الأخلاقي: منها الإيمان بالله تعالى ؛ لأنَّه حق، ومنها الاعتراف له بكمال الصفات، والأفعال، ومنها تصديقه فيما يخبرنا به ؛ لأنَّ من حق الصادق تصديقه، ومنها التسليم التام لما يحكم علينا به؛ لأنَّه هو صاحب الحق في أن يحكم علينا بما يشاء .

فكل هذه الأنواع من السلوك أمور تدعو إليها الفضيلة الخلقية.

أما دواعي الكفر بالخالق سبحانه وتعالى بعد وضوح الأدلة على وجوده فهي حتمًا دواع تستند إلى مجموعة من رذائل الأخلاق، منها الكبر، ومنها ابتغاء الخروج على طاعة من تجب طاعته، استجابة لأهواء الأنفس وشهواتها، ومنها نكران الجميل وجحود الحق...

القسم الثاني: ما يتعلَّق بوجوه الصلة بين الإنسان وبين الناس الآخرين .

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم معروفة وظاهرة: منها الصدق، والأمانة، والعفة، والعدل، والإحسان، والعفو، وحسن المعاشرة، وأداء الواجب، والاعتراف لذي الحق بحقه، والاعتراف لذي المزية بمزيته والمواساة والمعونة، والجود، وهكذا إلى آخر جدول فضائل الأخلاق التي يتعدى نفعها إلى الآخرين من الناس.

أما صور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم فهي أيضًا معروفة وظاهرة: منها الكذب، والخيانة، والظلم، والعدوان، والشح، وسوء المعاشرة، وعدم أداء الواجب، ونكران الجميل، وعدم الاعتراف لذي الحق بحقِّه، وهكذا إلى آخر جدول رذائل الأخلاق التي يتعدى ضررها إلى الآخرين من الناس.

القسم الثالث : ما يتعلَّق بوجوه الصلة بين الإنسان والأحياء غير العاقلة (الحيوان والطير والنبات) .

ويكفي أن تتصور من السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم، الرحمة بها، والرفق في معاملتها، وتأدية حقوقها الواجبة. وفي هذا يقول الرسول ﷺ " بَينَما رَجُلٌ يَمشي بِطَريقٍ اشْتَدَّ عَلَيهِ العَطَشُ ، فَوَجَدَ بِئراً فَنَزَلَ فِيهَا فَشربَ ، ثُمَّ خَرَجَ فإذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبُ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أمْسَكَهُ بفيهِ حَتَّى رَقِيَ ، فَسَقَى الكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ ، فَغَفَرَ لَهُ " قالوا : يَا رَسُول اللهِ ، إنَّ لَنَا في البَهَائِمِ أَجْراً ؟ فقَالَ : " في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

وقوله في حرمة قطع الأشجار والنباتات عبثاً وظلماً ودون منفعة عامة " مَنْ قَطَعَ سِدْرة (شجرة النَّبْق) صَوّب اللهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ".

[صحيح أبي داود والنسائي]

أما الظلم الأحياء غير العاقلة والقسوة وحرمانها من حقوقها؛ فهي من قبائح الأخلاق، وفي هذا يقول الرسول ﷺ " عُذِّبَتِ امرأةٌ في هِرَّةٍ سجَنَتْها حتَّى ماتت ، فدخَلَتْ فيها النَّارَ ، لا هي أطعَمَتْها ولا سَقَتْها إذ حبَسَتْها، ولا هي ترَكَتْها تأكُلُ مِن خَشَاشِ الأرْضِ " [متفق عليه] .

القسم الرابع : ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان ونفسه .

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم كثيرة : منها الصبر على المصائب، ومنها الأناة في الأمور، ومنها النظام والإتقان في العمل، ومنها عدم استعجال الأمور قبل أوانها، وكلُّ ذلك يدخل في حسن إدارة الإنسان نفسَه، وحكمته في تصريف الأمور المتعلقة بذاته .

وصور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم تأتي على نقيض صور السلوك الأخلاقي الحميد .

ومن ارتكب الأخلاق الذميمة يظلم نفسه قال تعالى : ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٩] أي: ظالمين لأنفسهم، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق : ١] .

وانتهاك العبد حق الله ، وحق الناس ، وحق الأحياء غير العاقلة فإنه في الحقيقة يظلم نفسه .

فالشرك بالله ظلم للنفس ﴿لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] لأن المشرك يعرض نفسه للخلود في النار .

ومن ظُلمِ النفس بمنع الزكاة : احتباسُ المطر عنه من السماء، ونَزعُ البركة من المال وتعريضه للآفات ، ومن ظُلمِ النفس بانتشار الزني والفواحش: ظهور الأوبئة والأمراض الخطيرة .

ومن ظَلَمَ نفسه بتعاطي السموم كالخمر والمخدرات، جرَّ على نفسه بلاءً عظيمًا وأمراضًا فتَّاكة، وجنى على مجتمعه بلاءً كبيرًا .

ولقد استعاذ النبي ﷺ من خصال الشرِّ؛ روى ابن ماجه بسنده إلى عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: " يا مَعشَرَ

المُهاجِرينَ ! خَمسُ خِصالٍ إذا ابْتُلِيتُم بِهنَّ ، وأَعوذُ باللهِ أنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لم تَظْهرِ الفاحِشةُ في قومٍ قطُّ حتى يُعلِنُوا بِها ؛ إلا فَشَا فِيهمُ الطاعونُ و الأَوجاعُ التِي لم تكنْ مَضتْ في أسلافِهم الَّذين مَضَوَا ، ولم ينقُصُوا المِكيالَ و المِيزانَ إلا أُخِذُوا بالسِّنِينَ وشِدَّةِ المُؤْنةِ و جَورِ السُّلطانِ ، ولم يَمنعُوا زكاةَ أموالِهم إلا مُنِعُوا القَطْرَ من السَّماءِ ، ولولا البهائِمُ لم يُمطَرُوا، ولا نَقَضُوا عهدَ اللهِ و عهدَ رسولِه إلا سَلَّطَ عليهِم عدُوًا من غيرِهِم ، فأَخَذُوا بعضَ ما في أيدِيهِم ، وما لم تَحكُم أئِمَّتُهم بِكتابِ اللهِ ، ويَتَخَيَّرُوا فِيما أنْزلَ اللهُ ؛ إلا جَعلَ اللهُ بأسَهُم بينَهُمْ " [صححه الألباني]

إن من تَحمَّل أمانة العمل – أيًّا كان هذا العمل – ثم مالت نفسُه الأمَّارة بالسوء، ففضَّل رغبة دنيوية، ومصلحة ذاتية، فلم يؤدِّ العمل على الوجه المطلوب، فاختلس الوقت أو الجهد أو المال، ولم يراع ما التزم به – فهو ظالم لنفسه .

والأب والأم ظالمان لأنفسهما إذا لم يحسنا تربية أبناءهما وتعليهم ، والمرأة ظالمة لنفسها إذا تهاونت في فَرضٍ عليها أو قصَّرتْ في حقِّ زوجها، أو عرَّضت نفسها للفتنة، والبائع ظالم لنفسه إذا غشَّ في سلعته.

وكلٌّ مُقصِّرٍ فيما وُكِلَ إليه من أعمال يُسألُ عن ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٧]. (١)

(١) على حامد " هل يظلم الإنسان نفسه ؟ " موقع الألوكة .

أقسام التشريع الإسلامي

إن الشرع الحكيم فيه المأمور به وهو درجات ففي مقدمتها أركان الإسلام الخمس، وهناك فرائض أقل من هذه الأركان تتدرَّج حتى تنتهي بالمندوبات التي تنتهي تدريجياً بالمباح ، وهناك سلم المنهي عنه الذي في مقدمته الكبائر وهناك محرمات أقل من الكبائر تتدرَّج حتى تنتهي بالمكروهات التي تنتهي تدريجياً بالمباح.

وهذا بيان قوله ﷺ : " إِنْ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا وَحَدَّ حُدُودًا فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَنَهَى عَنْ أَشْيَاءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رُخْصَةً لَكُمْ لَيْسَ بِنِسْيَانٍ فَلاَ تَبْحَثُوا عَنْهَا. " [حديث حسن، رواه البيهقي وغيره] .

وهذا الحديث النبوي الشريف ، كما قال العلماء ، أجمع حديث اشتمل على جوانب التشريع الإسلامي، ولا يوجد حكم يخرج عن نطاقه؛ لأنه جمع الفرائض والحدود والمنهي عنه والمباح ، وهذه هي أقسام التشريع.

ويطبق ابن القيم خلق الصبر على أقسام التشريع فيقول : " الصبر ينقسم إلى الأحكام الخمسة فالواجب الصبر على فعل الواجب وترك المحرم وتحمل المصيبة والمندوب الصبر على فعل المندوب وترك المكروه والمحرم الصبر على نحو ترك الأكل حتى يموت والصبر على نحو حية أو سبع أو غرق أو كافر يقتله والمكروه الصبر على نحو قلة الأكل جدا وعن جماع حليلته إذا احتاجت والمباح على ما خير بين فعله وتركه " .

يسر الإسلام وتنطع بعض الدعاة

كثير من الوُعَّاظ المُتَنَطِّعين يجعلون أمور الدين في مرتبة واحدة فلبس النقاب كفرضية الصلاة ، وحلق اللحية كشرب الخمر ، والرسام

والمصور كعابد الأوثان ، وسماع الأغاني والموسيقى كالزنا والفجور إن تركيزهم على مثل هذه الأمور وكثرة الحديث عنها والاستشهاد عليها من أقوال بعض السلف يجعل حلق اللحية وسماع الأغاني وسفور الوجه كترك الصلاة وشرب الخمر والزنا مع أن أمور الدين ليست على درجة واحدة " بل متفاوتة بيقين في منزلتها من الدين كما أن في داخل كل منها ما يعد من الأصول وما يعد من الفروع ما هو من الأركان ، وما هو من المكملات ما هو من الفرائض ، وما هو من النوافل ما هو قطعي وما هو ظني ما هو متفق عليه وما هو مختلف فيه ما هو في مرتبة الضروريات وما هو في مرتبة الحاجيات وما هو في مرتبة التحسينات على حد تقسيم الأصوليين وهذا أمر جد خطير حتى يأخذ كل عمل مرتبته وتأخذ كل مرتبة حكمها ولا نذيب الفواصل بين الأعمال بعضها وبعض كما يفعل بعض الناس الذين يعاملون الفروع معاملة الأصول ، والسنن معاملة الفرائض والمكروهات كالمحرمات والأمور المختلف فيها كالأمور المتفق عليها والظنِّيات كالقطعيات ولهذا تضطرب أحكامهم ويختلط عليهم الأمر ويبعدون عن سواء السبيل " (١)

ومن حقائق الحياة أن الناس يتفاوتون في هذه القضية فمنهم المتساهل الميسر ومنهم المتشدد المعسر وقد كان في الصحابة المترخص كابن عباس والمتشدد كابن عمر رضى الله عنهما . (٢)

لكن هؤلاء المُتَنَطِّعين يأبون إلا أن يفتوا الناس بآرائهم المتشددة ويلزموهم بها وكان عليهم إما أن يبينوا للناس بشيء من اليسر أشهر

(١) د٠ يوسف القرضاوي " نحو وحدة فكرية " ص ١٠٩ .
(٢) د . يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٣٧ .

الآراء ويَدَعُوا الناس تختار ما تطمئن إليه قلوبهم ، أو يكتفون بذكر الرأي الأيسر إقتداء بالنبي ﷺ الذي ما خير بين أمرين إلا واختار أيسرهما ما لم يكن أثماً .

هؤلاء المُتَنَطِّعون يخلطون بين ما هو مقدس – وهو القرآن الكريم وصحيح السنة – وما هو اجتهاد بشرى ، فيخلطون مثلاً بين القرآن الكريم وتفسير بعض علماء السلف له فكلاهما مقدس لا يجوز الخروج عليه . فإذا قال الله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[لقمان : ٦] فيكون مراد الله تعالى بلهو الحديث هو " الغناء " كما قال بعض السلف ومن قال بغير ذلك فقد خالف كتاب الله ! وبهذا أصبح بعض كلام السلف هنا مقدساً كالقرآن بالطبع إذا وافق هوى السلفي النصي الحرفي إما إذا خالف هواه في موضع آخر كتفسير ابن عباس وغيره من صحابة رسول الله ﷺ للمستثنى في قوله تعالى ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور : ٣١] بالوجه والكفين لم يلتفتوا إليه بل يجعلون رأى ابن مسعود هو الرأي المُقدَّس في هذه القضية وهكذا أصبح المُقَدَّس من آراء السلف ما يقدسونه هم حسب هواهم .

وبالنسبة للسنة النبوية فليس كل أمر للنبي ﷺ فريضة كما أنه ليس كل نهي له ﷺ تحريماً ؛ " فالواجب شرعاً هو ما طلب الشارع فعله من المكلَّف طلباً حتمياً بأن اقترن بما يدل على تحتيم فعله كما إذا كانت صيغته نفسها تدل على التحتيم أو دلَّ على تحتيم فعله ترتيب عقوبة

على تركه أو أية قرينة شرعية أخرى "[1] كالصلاة ، والصيام ، وبر الوالدين ، والصدق ، وأداء الأمانة ....

أما المُحَرَّم فهو " ما طلب الشَّارعُ الكفَّ عن فعله حتماً بأن تكون صيغة الكفِّ نفسها دالة على أنه حتم كقوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ﴾ [النساء : ٣] وقوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام : ١٥١] أو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ﴾ [النساء : ١٩] أو يكون النهي عن فعله مقترناً بما يدل على أنه حتم مثل ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ [الإسراء : ٣٢] [2]

إن بعض المُتَنَطِّعين يريدون أن يشرعوا للناس ويلزمونهم بما لم يلزمهم به الله تعالى فيجعلون السنن فرائض ، والمكروهات محرمات . والمفروض ألا نلزم الناس إلا بما ألزمهم الله تعالى به جزماً وما زاد على ذلك فهم مخيرون فيه إن شاءوا فعلوا وإن شاءوا تركوا .

يقول تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى : ٢١] أي ابتدعوا لهم من الدين ما لم يبح الله لهم ابتداعه . " ولطالما قلت : إن حسبنا من المسلم في هذا العصر أن يؤدى الفرائض ويجتنب الكبائر لنعتبره في صف المسلمين وأنصاره ما دام ولاؤه لله ورسوله وإن ألمَّ ببعض الصغائر من المحرمات فعنده من

(٢) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " ص ١٠٥ .
(٣) نفسه ص ١١٣ .

الحسنات مثل : الصلوات الخمس ، وصلاة الجمعة ، وصيام رمضان ، وغيرها ما يكفر عنه الصغائر ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود : ١١٤] ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء : ٣١] (١)

عن طلحة بن عبيد الله " أنَّ أعرابيًا جاءَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ثائرَ الرأسِ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ، أخبرني ماذَا فرَضَ اللهُ عليَّ من الصَّلاةِ ، فقالَ : الصَّلَوَاتِ الخمْسَ إلا أنْ تَطَّوَّعَ شيئًا . فقالَ : أخبِرْني ما فَرَضَ اللهُ عليَّ من الصيامِ ، فقالَ : شَهْرُ رمضانَ إلاَّ أنْ تَطَّوَّعَ شيئًا . فقالَ : أخْبِرني بمَا فَرَضَ اللهُ عليَّ من الزَّكَاةِ ، فقالَ : فَأَخْبَرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ رائِعَ الإسلامِ ، قالَ : والذي أكْرَمَكَ ، لا أَتَطَوَّعُ شيئًا ، ولا أَنْقُصُ ممَّا فَرَضَ اللهُ عليَّ شيئًا . فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : أَفْلَحَ إنْ صَدَقَ ، أوْ : دخلَ الجنةَ إنْ صدقَ " [متفق عليه] .

وهذا التشدد في إلزام الناس بما لم يلزمهم به الله تعالى لا يطيقه كل الناس ويوقع كثير من الناس في الحرج فهم لا يقدرون على القيام به والمتنطعون لا يكفون عن إلزامهم به .﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج : ٧٨]

أي ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل اللّه لكم فرجاً ومخرجاً، ولهذا قال ﷺ : "بعثت بالحنيفة السمحة . (٢)

ومما يؤخذ عليهم كذلك تحريمهم لكثير من المباحات يقطعون فيها بالتحريم مع أن التحريم لا يكون إلا بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة،

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٤٣ .
(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٥٥ .

وهم لا يعلمون أن من حرَّم ما أحل الله كمن أحلَّ ما حرم الله يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة : ٨٧] .

قال ابن عباس: نزلت هذِهِ الآيةُ في رَهْطٍ من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ قالوا : نَقطعُ مذاكيرَنا ، ونترُكُ شَهَواتِ الدُّنيا ، ونَسبَحُ في الأرضِ كما يفعلُ الرُّهبانُ ! فبلغَ ذلِكَ النَّبيَّ ﷺ فأرسلَ إليهم فذَكَرَ لَهُم ذلِكَ ، فقالوا : نعَم ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ لَكِنِّي أصومُ وأُفطرُ ، وأصلِّي ، وأَنامُ ، وأنكِحُ النِّساءَ ، فمَن أخذَ بسنَّتي فَهوَ منِّي ، ومَن لم يأخُذْ بِسنَّتي فليسَ منِّي " [رواه ابن أبي حاتم] وفي الصحيحين عن أنس قَالَ : " جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِروا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا وَقَالُوا : أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . قَالَ أَحدُهُم : أمَّا أنا فَأُصَلِّي اللَّيلَ أبداً . وَقالَ الآخَرُ : وَأَنَا أصُومُ الدَّهْرَ أَبَداً وَلا أُفْطِرُ . وَقالَ الآخر : وَأَنا أعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أتَزَوَّجُ أبَداً . فجاء رسولُ الله ﷺ إليهم ، فَقَالَ : " أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا واللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أصُومُ وَأُفْطِرُ ، وأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّساءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

وقوله تعالى : ﴿لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ﴾ يعنى بالطيبات: اللذيذات التي تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبان، فحرَّموا على أنفسهم النساء والمطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وحبس في الصوامع بعضهم أنفسهم، وساح في الأرض بعضهم. يقول تعالى ذكره: فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك، ولا تعتدوا حد الله الذي حد لكم فيما أحل لكم

وفيما حرم عليكم فتجاوزوا حده الذي حده، فتخالفوا بذلك طاعته، فإن الله لا يحب من اعتدى حده الذي حده لخلقه فيما أحل لهم وحرم عليهم[1]

﴿وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ لْمُعْتَدِينَ﴾ قيل : المعنى لا تعتدوا فتحلّوا ما حرم الله فالنهيان على هذا تضمنا الطرفين؛ أي لا تشددوا فتحرموا حلالا، ولا تترخصوا فتحلوا حراما؛ قاله الحسن البصري. وقيل: معناه التأكيد لقوله: "تحرموا "؛ قاله السدي وعكرمة وغيرهما؛ أي لا تحرموا ما أحل الله وشرع " [2]

ويقول تعالى أيضاً : ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] .

قال ابن وهب قال مالك: لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولوا إياكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا. ومعنى هذا: أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعالى يخبر بذلك عنه . وما يؤدى إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول : إني أكره كذا. وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى." [٣]

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم اللّه أو حرم شيئاً مما أباح اللّه بمجرد رأيه وتشهيه، ثم

(١) تفسير الطبرى ج١٠ ص ٥٢٣ .
(٢) تفسير القرطبى ج ٦ ص ٢٦٣ .
(٣) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٩٦.

توعد على ذلك فقال: ﴿إن الذين يفترون على اللّه الكذب لا يفلحون﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة ؛ أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان : ٢٤] "[1]

وما أكثر المباحات التي حرمها المُتَنَطِّعون ! وما أكثر المندوبات التي فرضها المتفيقهون ! ولقد كثرت تلك الكتيبات وانتشرت بين أيدي الشباب التي تحرم العادات كلبس " الدبلة " للخاطب والمتزوج ! والاحتفال بالمولد النبوي حتى بذكر الله وقراءة القرآن ! والاحتفال بأعياد الميلاد وإن كانت خالية من الإسراف والبذخ! والاحتفال بعيد الأم وإن كان فيه صلة رحم مقطوعة ! وتحريم جميع أنواع الموسيقا والغناء حتى ولو كان دفاً يعلن به النكاح ! وتحريم حلق اللحية أو أخذ شيء منها ! وتحريم التصوير وإن كانت صورة في بطاقة شخصية أو جواز سفر ! وتحريم تعليم المرأة وإن كان ولابد فتتعلم العلوم الدينية فقط وما عدا ذلك فحرام ! وتحريم كشف المرأة وجهها ، وإن كان لضرورة تقتضيها حاجة العمل ! ...

وأصبح التنافس بين هؤلاء الكتاب المتنطعين على البراعة في تحريم المباحات وفرض المندوبات !!

وهذا مخالف لقول الله تعالى ﴿يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر﴾ [البقرة : ١٨٥] وقوله تعالى ﴿يُرِيدُ الله أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً﴾ [النساء : ٢٨] وقوله تعالى ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨] .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٠٩ .

كما أن هذا الفكر المتشدد مُخالف لسنة النبي الذي قال إن الدين يسر بل إنه وصف أمثال هؤلاء بالمُتَنَطِّعِين ودعا عليهم بالهَلَاك .

فعن ابن مسعود أنّ النَّبيّ ﷺ قَالَ : " هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ " قالها ثَلاثاً " [رواه مسلم]

" المُتَنَطِّعونَ " : المتعمقون المشددون في غير موضِعِ التشديدِ .

وعن أَبي هريرةَ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ : " إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّيْنُ إلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ " [رواه البخاري] .

وفي رواية لَهُ : " سَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، وَاغْدُوا وَرُوحُوا ، وَشَيءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ ، القَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا " وقول النبي " إلا غَلَبَهُ " : أي غَلَبَهُ الدِّينُ وَعَجَزَ ذلِكَ المُشَادُّ عَنْ مُقَاوَمَةِ الدِّينِ لِكَثْرَةِ طُرُقِهِ .

معنى الحديث اسْتَعِينُوا عَلَى طَاعَةِ اللهِ تعالى بِالأَعْمَالِ في وَقْتِ نَشَاطِكُمْ وَفَرَاغِ قُلُوبِكُمْ بِحَيثُ تَسْتَلِذُّونَ العِبَادَةَ ولا تَسْأَمُونَ وتبلُغُونَ مَقْصُودَكُمْ ، كَمَا أَنَّ المُسَافِرَ الحَاذِقَ يَسيرُ في هذِهِ الأَوْقَاتِ ويستريح هُوَ وَدَابَّتُهُ في غَيرِهَا فَيَصِلُ المَقْصُودَ بِغَيْرِ تَعَب .

إباحة النبي ﷺ الترويح عن النفس

وكما أن بعض الوعاظ يرهقون الناس بالإكثار من السنن والمندوبات حتى وإن كانت على حساب القيام بحقوق العمل والزوجة والأولاد والبدن فإنهم يحرمون عليهم كل لهو وإن كان مباحاً وكل ترويح عن النفس وإن كان فيه نفع ، وهذا مخالف لسنة النبي ﷺ وصحبه الكرام فعن أبي رِبعِي حنظلة بنِ الربيعِ الأُسَيِّدِيِّ الكاتب أحدِ كتّاب رَسُول الله ﷺ قَالَ :

لَقِيَنِي أَبُو بَكر، فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حنْظَلَةُ ؟ قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ! قَالَ: سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ ؟! قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بالجَنَّةِ وَالنَّارِ كأَنَّا رَأيَ عَيْنٍ فإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُول الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْواجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسينَا كَثِيراً ، قَالَ أَبُو بكر: فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ، فانْطَلَقْتُ أَنَا وأَبُو بَكْر حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُول الله ﷺ. فقُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُول اللهِ ! فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : " وَمَا ذَاكَ ؟ " قُلْتُ : يَا رَسُول اللهِ ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ والجَنَّةِ كأَنَّا رَأيَ العَيْن فإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْواجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسينَا كَثِيراً . فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : " وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ ، لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونونَ عِنْدِي، وَفي الذِّكْر ، لصَافَحَتْكُمُ الملائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفي طُرُقِكُمْ ، لَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وسَاعَةً " ثَلاَثَ مَرَات " [رواه مسلم] .

يقول ابن العثيمين في شرح ساعة وساعة : " يعني ساعة للرب عز وجل وساعة مع الأهل والأولاد وساعة للنفس حتى يعطي الإنسان لنفسه راحتها ويعطي ذوي الحقوق حقوقهم وهذا من عدل الشريعة الإسلامية وكمالها أن الله عز وجل له حق فيعطى حقه عز وجل وكذلك للنفس حق فتعطى حقها وللأهل حق فيعطون حقوقهم وللزوار والضيوف حق فيعطون حقوقهم حتى يقوم الإنسان بجميع الحقوق التي عليه على وجه الراحة ويتعبد لله عز وجل براحة لأن الإنسان إذا أثقل على نفسه وشدد عليها مل وتعب وأضاع حقوقاً كثيرة "[1]

وقال السيوطي : " أي أريحوا القلوب بعض الأوقات من مكابدة العبادات، بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب . قال أبو الدرداء : " إني لأجِمُّ

(1) محمد بن صالح بن محمد العثيمين " شرح رياض الصالحين " ص ١٦٩

فؤادي ببعض الباطل " أي اللهو الجائز " لأنشط للحق " . وذكر عند المصطفى ﷺ القرآن والشعر، فجاء أبو بكر فقال " أقراءة وشعر ؟ " فقال " نعم، ساعة هذا وساعة ذاك " . وقال علي " أجِمّوا هذه القلوب، فإنها تمل كما تمل الأبدان " أي تكل . " (١)

الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان

والنبي ﷺ وضَّح لنا بجلاء الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان فعن عمر بن الخطاب قَالَ : " بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ ذَاتَ يَومٍ، إذْ طَلَعَ عَلَينا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ ، شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لا يُرَى عَلَيهِ أثَرُ السَّفَرِ ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إلَى النَّبيّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيهِ إلَى رُكْبَتَيهِ ، وَوَضعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ ، وَقالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أخْبرني عَنِ الإسلامِ ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: " الإسلامُ : أنْ تَشْهدَ أنْ لا إلـهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحمَّداً رسولُ الله ، وتُقيمَ الصَّلاةَ ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ البَيتَ إن اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبيلاً " . قَالَ : صَدَقْتَ . فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقهُ ! قَالَ : فَأَخْبرني عَنِ الإيمَانِ . قَالَ " أنْ تُؤمِنَ باللهِ ، وَمَلائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ " . قَالَ : صَدقت . قَالَ : فأَخْبرني عَنِ الإحْسَانِ . قَالَ : " أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ " [متفق عليه]

فإذا كان إسلام المرء يتحقق بمجرد أدائه أركان الإسلام الخمسة فإن الإيمان يعنى أداءه ما أمره الله به ونهاه عنه خالصاً لله ووفق ما شرع " إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا يقْبَلُ منَ العْمَلِ إلاَّ ما كان له خالصا ، وَابتُغِيَ به وجْهُهُ " [أخرجه النسائي] .

---

(1) السيوطي " الجامع الصغير من حديث البشير النذير " ج١ ص ٤٣٨ .

والإحسان معناه عدم الاكتفاء المؤمن بفعل الواجبات بل يتقرب إلي الله بالسنن والنوافل ، ولا يكتفي بترك المحرمات بل ينزه نفسه عن فعل المكروهات .

فعن أبي هريرة قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ : " إنَّ الله تَعَالَى قَالَ : مَنْ عادى لي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدي بشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحبَبْتُهُ كُنْتُ سَمعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَني أعْطَيْتُهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ " [رواه البخاري] .

إن الإحسان أعلى مراتب الإسلام، وأفضل درجاته ؛ لأن القُرب من رب العالمين ونيل الزلفى لديه هو بالإحسان إلى النفس والإحسان إلى الخلق، فإذا جمع العبد بين ذلك كان أقرب إلى ربه.

والإحسان يتضمن نفعَ النفس بجميع القربات وأنواع الخيرات، وكفِّها عن جميع المحرمات، ونفع الخلق بجميع أنواع البر. والإحسان أفضل منازل السائرين، وأعلى درجات العبادة، وأحسن أحوال عباد الله الصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً﴾ [النساء:١٢٥]، وقد وعد الله تعالى على الإحسان أعظم الثواب في الدارين، وأحاط المحسنين بعنايته، وحفظهم بقدرته، وأجزل لهم الخيرات برحمته تعالى.

فما الإحسان الذي هذا درجته عند الله؟ وما الإحسان الذي هذا ثوابه في الدارين؟ قال رسول الله ﷺ : " أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ

تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ " ومعنى هذا أن العبد يعبد الله مستحضراً قربه من الله، ووقوفه بين يديه، كأنه يراه ويشاهده، وذلك يقتضي خشية الله وتعظيمه والخوف منه ومحبته، ويوجب النصح في العبادة، وبذل الجهد في إتقانها، وإتمامها وإكمالها .

الإحسان إقامة الصلاة على أتمِّ وجوهها، والتقرُّب إلى الله تعالى، ومناجاته في ساعات الليل إذا الناس ينامون، وإحسانٌ إلى الخلق، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات :١٦ -١٩] .

الإحسانُ جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد المنافقين وجهاد الكفار، قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦-١٤٨] .

الإحسان إنفاقٌ في الغنى والفقر، وكظمٌ للغيظ، وعفو عن الجاهلين، قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤] .

الإحسان نصحٌ لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى المَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا

يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة : ٩١] .

الإحسان انقياد للحق، وحبٌ له، واستماع للوحي المنزل بقلوب سليمة وآذان واعية وعيون دامعة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٨٣-٨٥]. (١)

ويقول د. عبد الله دراز : " ينتج عن هذا التنافس بين القيم أن الواجب في كل فرع من فروع الحياة . لا ينبغي أن يشغل إلا مساحة معينة من الخير الممكن من نفس هذا الفرع ، كي يتيح للفروع الأخرى أن تشبع احتياجاتها وتحصل على نصيبها المشروع من نشاطنا . وهناك حدود عليا تدركها الضمائر السوية بحيث إذا تعدت الفضيلة هذه الحدود ، لا يتبقى منها شيء يسمى فضيلة لأنها قد بدأت تضر بفضيلة أخرى .

ولكن هذه الحدود العليا – التي تتنوع بحسب استعداد وظروف كل إنسان – لا ترسم ميدان الخير الأخلاقي إلا على نحو جزئي وسلبي . ونظراً لاتساع هذا الميدان ورحابته ، فإن كل إنسان يلمس فيه درجات متفاوتة من الثواب بحيث أن أي تقصير في درجة أو أخرى من هذه

(١) من خطبة جمعة ألقاها الشيخ علي بن عبد الرحمن الحذيفي في المسجد النبوي بتاريخ ١٤٢٣/٢/١٣ .

الدرجات يترتب عليه إما لوم شديد ، وإما تأنيب بين الخفيف والشديد ، وإما إنه لا يثير أي رد فعل في الضمير . أليس في ذلك اعتراف بأن فكرة الخير يجب أن تتضمن قيمتين مختلفتين : حداً أدنى إجبارياً ، وإضافة فوق هذا الحد أكثر إغراء بالثواب ؟ ولا يتركز اختلاف الضمائر على هذه النقطة ، وإنما يحدث الخلاف عندما يكون الجانب الإلزامي هو أدنى الدرجات الممكنة ، وهو مقياس لا يحقق رضا الناس بصفة عامة . فالرجل الصالح يكون أكثر تشدداً ؛ لأنه يتصور مستوى الوسط مبهماً لا يستطيع أن يحدد له مقياساً دقيقاً . إذ كيف السبيل إلى تحديد هذا الوسط لكل واجب من واجباتنا ؟ أليس هناك مقياس عملي أو موضوعي يستطيع عقل الإنسان أن يقدمه . وإذا لجأنا إلى الضمائر الفردية فسوف لا تتفق فيما بينها على شيء ، وإذا تداولنا فيما بيننا لرسم حدود متفق عليها ، فهذا يعني اللجوء إلى التحكم والتعسف ، ومع ذلك فإننا في أمس الحاجة إلى هذا التحديد لأن " شمولية القانون تقتضي قدراً من التجانس في الأساس " وإلا فلن تدوم أية قاعدة أخلاقية ولن يبقى من القانون غير اسمه خالياً من أي مضمون ....

ففيما عدا الواجب المطلق – وهو الإيمان – الذي ليس فيه قيود ولا حدود ، فإن الأخلاق الإسلامية ترسم لكل عمل قابل للتحديد درجتين من الخير وتعطي لكل منهما

علامات مميزة ومحددة بدرجة كافية : " الحد الأدنى " الذي يؤدي الهبوط دونه إلى الإخلال بالواجب ، ثم " الدرجة الأعلى " التي لا تتجاوز الحد الأقصى . وبعبارة أخرى " الخير " الإلزامي " ، " الخير

الموصى به " ، أي أن ما وصفته الأخلاق الإسلامية بأنه ضرورة ملحة يمثل مشاركة في كل قيمة من القيم (مثل شهر من الحرمان يفرض على شهواتنا ، وعشر محاصيلنا ، وجزء من أربعين جزءاً من الأموال تخصص للفقراء ، وخمس صلوات في اليوم ...) وفضلاً عن ذلك يفسح القرآن الكريم في كل مجال طريقاً لمشاركة أوسع ، ويحث على عدم الاكتفاء بالوقوف عند هذا الحد المشترك ، وإنما على الارتفاع دائماً إلى درجات أكثر جدارة ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة : ١٨٤] ﴿وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبّهِمْ سُجَّداً وقياماً﴾ [الفرقان : ٦٤] ﴿وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو﴾ [البقرة : ٢١٩] فالقرآن الكريم يضع فضيلة " الإسماح " فوق الحق السائد ، ويلح بصفة خاصة على فضيلة " الإحسان " ﴿وَأَن تعفوا أَقْرَبُ للتقوى وَلاَ تَنسَوُاْ الفضل بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة : ٢٣٧] فإهمال المدين المعسر واجب ، ولكن التنازل عن الدين عمل جدير بالتقدير ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة : ٢٨٠] ودفع الظلم عن الناس حق ، ولكن الصبر عليه والعفو عن الظالم ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .

وأداء الفرائض خير ولكن ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨] (١)

التناقضات العملية للإلزام الأخلاقي

وتقابلنا مجموعة من التناقضات العملية للإلزام يشعر كل فكر أخلاقي أمامها أنه في حيرة وأن عليه أن يتخذ حيالها موقفاً . نذكر منها تناقضين رئيسيين :

(1) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ٢٨ ، ٢٩ .

أ- وحدة وتنوع : إذا كانت الأخلاق علماً فيجب أن ينبني على قوانين شاملة وضرورية لا على قضايا خاصة وعارضة . وبناء على ذلك إما أن نحافظ على وحدة القانون أو نحترم تنوع الطبيعة التي يحكمها هذا القانون .. إما الإبقاء على بساطة القاعدة أو إخضاعها لتعقيد الحياة التي تسري عليها هذه القاعدة .. إنهما طرفا الطريق التي علينا أن نسلكها ، وكلما اقتربنا من أحد الطرفين كلما ابتعدنا عن الطرف الآخر. تلك أولى الصعوبات الأخلاقية .

ب- سلطة وحرية : ترتبط هذه الصعوبة بالسابقة . إذ أن العلاقة التي يعبر عنها لفظ " إلزام " علاقة تتنازعها إرادتان مختلفتان لهما اتجاهات متنافرة . " فالمُشَرِّع " يحرص على " سلطته " و " الفرد " يدافع عن " حريته " . ولما كانت سلطة المُشَرِّع تظل مستحكمة ما دامت القواعد التي يصدرها هذا المُشَرِّع تحتفظ بقوتها وسلامة صياغتها ، فلا تؤثر الظروف في نفوذها بأي حال لتضعفه أو تحد منه ، هنا يصبح القانون الأخلاقي كالقانون الطبيعي تماماً حيث يتلقى الفرد قواعده بسلبية ويطبقها بانقياد أعمى . ومعنى هذا أن " الإلزام " الصرف يقابله انتفاء للحرية وخضوع ذليل . ولكن ما جدوى الضمير الذي لا يغير حضوره أو غيابه شيئاً هنا في مجرى الأحداث؟ إذا ما نحن أرضينا الفرد ومنحناه حرية كاملة في الاختيار والتصرف ، وسوف يتحول " الأمر " إلى مجرد " توصية يقبلها الفرد أو يرفضها حسب تقديراته الشخصية [1]

([1]) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ٣٠، ٣١ بتصرف .

كيف جمع الإسلام بين حرية الاختيار والإلزام الأخلاقي ؟

لقد كفل الإسلام حرية الاختيار للإنسان فلم يكرهه في الدين فمن قواعد الإسلام الرئيسة بالنسبة للحرية الدينية أو حرية الاعتقاد قوله تعالى ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فلم يأمر الرسول ، والمسلمون مِنْ بَعْدِه ، أحدًا باعتناق الإسلام قسرًا ؛ إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المُكرَه لا قيمة له .

لقد جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه واقتناعه الداخلي؛ فقال تعالى ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] .

ولَفَتَ القرآنُ نظر النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة، وبَيَّنَ له أن عليه تبليغ الدعوة فقط، وأنه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام فقال ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] وقال ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢٢] وقال تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ [الشورى : ٤٨] .

ومن ذلك يَتَّضِح أن دستور المسلمين يُقَرِّر حرية الاعتقاد، ويرفض رفضًا قاطعًا إكراه أَحَدٍ على اعتناق الإسلام .

إن إقرار الحرية الدينية يعني الاعتراف بالتَّعَدُّدِيَّة الدينية، وقد جاء ذلك تطبيقًا عمليًّا حين أقرَّ النبي ﷺ الحرية الدينية في أوَّل دستور للمدينة، وذلك حينما اعترف لليهود بأنهم يُشَكِّلُون مع المسلمين أُمَّةً واحدة، وأيضًا في فتح مكة حين لم يُجْبِرِ الرسول ﷺ قريشًا على اعتناق الإسلام، رغم تمكُّنه وانتصاره، ولكنه قال لهم : " اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ"

وعلى دربه أعطى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب للنصارى من سكان القدس الأمان "على حياتهم وكنائسهم وصلبانهم، لا يُضَارُّ أحدٌ منهم ولا يرغم بسبب دينه " .

بل إن الإسلام كفل حرية المناقشات الدينية على أساس موضوعي بعيد عن المهاترات أو السخرية من الآخرين، وفي ذلك يقول الله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وعلى أساس من هذه المبادئ السمحة ينبغي أن يكون الحوار بين المسلمين وغير المسلمين، وقد وَجَّه القرآن هذه الدعوة إلى الحوار إلى أهل الكتاب فقال : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]

ومعنى هذا أن الحوار إذا لم يَصِلْ إلى نتيجة فلكلٍّ دينه الذي يقتنع به، وهذا ما عَبَّرَتْ عنه أيضًا الآية الأخيرة من سورة (الكافرون) التي خُتِمَتْ بقوله تعالى للمشركين على لسان محمد ﷺ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] (١)

لقد أعطى الله سبحانه الإنسان الحرية الكاملة في اختيار عقيدته بعد بيان الحق الذي جاء به الأنبياء يقول تعالى : ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] .

إن العقيدة ليست مِلْكاً لأحد حتى يجامل فيها. إنما هي مِلْك لله ، والله غَنيَّ عن العالمين. والعقيدة لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها

(1) د. راغب السرجاني " حرية الاعتقاد في الإسلام " موقع قصة الإسلام .

خالصة، ولا يأخذونها كما هي بلا تحوير. والذي يترفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين .

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:١٠٧] ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان:٢٩] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى﴾ [الأنعام:٣٥] ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:٩] .

لكن الحرية المطلقة فوضى مطلقة وضياع للحقوق الغير فحريتك يجب أن تقف عند حرية الآخرين ، وكما يُقال " أنت حر ما لم تضر " فكيف عالج الإسلام هذا التناقض بين حرية الإنسان دون حدوث فوضى أو اعتداء على حرية الآخرين لقد عالج الإسلام هذا التناقض بأن جعل هناك تشريعات (قوانين إلهية) فرضها على الناس جميعاً في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ورتَّب عليها حدوداً وتعزيرات دنيوية إن كانت تجور على حقوق الغير أو تفسد المجتمع ، وجزاءً أخروياً : الجنة لمن يلتزم بها والنار لمن كفر بها اعتقاداً أو تطبيقاً ، وقد خيَّر الإسلام الإنسان في اختيار الإيمان أو الكفر ولم يرتِّب على هذا الاختيار عقوبة دنيوية إنما أرجأها إلى الآخرة ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢١ –٢٦].

أما الجرائم الأخلاقية التي تضر بالغير ، وفيها معاداة لله ورسوله ، وسعي في الأرض فساداً فقد حدَّ لها حدوداً دنيوية ، وقرر لها تعزيرات رادعة لها .

ولكن الإسلام جعل العقوبات الدنيوية على الجرائم الأخلاقية آخر الدواء كالكَيُّ ولا يلجأ إليه إلا بعد غرس العقيدة ومخافة الله في النفوس، وترسيخ رقابة الله تعالى على الإنسان ، وربط التشريعات بعللها كما سنبين بالتفصيل .

الحل القرآني للإلزام الأخلاقي

وعن الحل القرآني للإلزام الأخلاقي يقول د. عبد الله دراز :

يقول تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦] .

يحدثنا القرآن الكريم على أن نوجَّه أنظارنا إلى السماء ، ونحن نستند على قواعد صلبة من الواقع . وهكذا يلتقي طرفا الخيط : صعود نحو المثل الأعلى ، وحفاظ على الفطرة ، " خضوع للقانون وحرية للذات " .

إن الضمير الذي يخاطبه القرآن الكريم ليس الضمير الفارغ البهيمي ، الذي ليس له مرشد سوى فطرته في حالتها البدائية . وإنما هو ضمير يجمع بين عنصرين لا يتوفران في غيره ، فهو مستنير بفضل تزوده بتعاليم موضوعية حيث الواجبات محددة ومرتبة بدرجة كافية ، ثم إنه يواجه واقعاً حيّاً له وقاره في نفسه . وباختصار إنه " ضمير المؤمن " وخاصيته الفريدة أنه يحمل في أعماقه شخصية المُشَرِّع الحاضر المستعد للإجابة على كل استشارة . ولهذا فإنه لا يليق به – دون أن

يخدع نفسه – أن ينساق وراء اعتبارات يعرف أنها غير مشروعة في نظر المُشَرِّع .

أما كون الفرد ملزم في حالة الشك والتردد أن يرجع إلى ضميره يستفتيه ، ويلتزم بتنفيذ ما يجيبه به ، فهذا ما وصَّانا به رسول الله مستوحياً القرآن " الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ " [البخاري] " دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ ؛ فإِنَّ الصِّدقَ طُمَأْنِينَةٌ ، وَالكَذِبَ رِيبَةٌ " [صحيح الترمذي] " اسْتَفْتِ قَلْبَكَ ، البرُّ : مَا اطْمَأَنَّت إِلَيْهِ النَّفسُ ، وَاطْمأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ ، وَالإِثْمُ : مَا حَاكَ في النَّفْسِ ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتُوكَ " [حديث حسن رواه أحمد] .

فمن بين الواجبات ما يتعين علىَّ أداؤه كل يوم أو دورياً أو حسب الظروف . ومنها ما لا تسنح فرصته سوى مرة واحدة في حياتي . وكل من جسمي وعقلي وأسرتي ووطني ، وكل صلة من هذه الصلات تطالبني بنشاط محدد تعينه قاعدة أخلاقية . ومع ذلك أستطيع عندما أستيقظ في الصباح أن أنوِّع في برنامج أعمالي اليومية وأحدد خط سيري كيفما أشاء ، كما أستطيع أن أعدِّل فيه بالإضافة أو الحذف . وهكذا أستطيع أن أملأ صفحة كاملة من حياتي الأخلاقية بالأعمال المجيدة مع احترامي " للقواعد العامة " المتعلقة بهذه الموهبة البشرية . فكيف يمكن المطالبة بقدر أكبر من الحرية يؤدي إلى نسف هذه الحدود؟ ما لم تكن هذه المطالبة دعوة إلى الفوضى أو إلى الجنون . بل إن مثل هذه المطالبة هي التي يجب التصدي لها بمقتضى كل حكمة تشريعية جديرة بهذا الاسم .

إننا لا ننشئ " قواعد التشريع " وإنما نتلقاها جاهزة من يد مُشَرِّعنا صريحة أو ضمنية . أما تحديد " واجباتنا " فإننا " نبنيها " انطلاقاً من المثل العليا وفي حدود استطاعتنا . هذا هو الموقف المعقول واليسير الذي يتخذه قانون الأخلاق القرآني . فهو يضع الإنسان في مكانه الصحيح . وفي الظروف التي تتناسب تماماً مع فطرته وعقله الخالص .... فعندما يلتحم " ضميرنا " مع القانون الإلهي المقدس يتمثله الضمير ويدافع عنه ، ويجعله جزءاً منه . ومن ناحية أخرى عندما نقوم بترتيب مختلف القواعد المقررة ، وتوفيقها بما يتناسب مع ظروفنا الخاصة ، لا نفعل ذلك في غيبة المولى سبحانه وتعالى إنما تحت رعايته وإشرافه ومراقبته . فنحن دائماً نستلهمه ، كما لو كان يواصل في أعماقنا دور المُشَرِّع حتى في أدق التفاصيل .

إنها وحدها – في رأينا – الأخلاق الدينية هي التي تستطيع أن تنهض بهذه المهمة . وهذا ما فعله قانون الأخلاق في القرآن عن جدارة وبلا معقب لحكمه ! " [1]

الرقابة الإلهية على الأعمال الإنسانية

لقدر أكَّد الله تعالى عقيدة إحاطة علمه بأحوال الخَلْق ، ورقابته تعالى لهم في كل أحوالهم ، ومحاسبته لهم على ما يعملون صغيراً كان أو كبيراً من أجل الترغيب في فعل الصالحات واجتناب المنهيات في السر والعلن يقول تعالى ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١] ﴿وَكَانَ

(1) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " مرجع سابق ص ٣٥، ٣٦ بتصرف .

اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ [الأحزاب:٥٢] ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

فكل عمل يفعله الإنسان يعلمه الله تعالى ويحاسبه عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾ [البقرة : ١٩٧] ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة:٢٧٠] ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٩] ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٢٣] والآيتان الجامعتان في هذا قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزَّلزلة : ٧ ، ٨] .

من يعمل أي قدر من الخير وإن كان قليلاً يثب عليه في الآخرة قالﷺ : "لا تحقِرَنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقَى أخاكَ بوَجْهٍ طليقٍ" [رواه مسلم] ومن يعمل أي قدر من الشر وإن كان قليلاً فسوف يجز به قال رسول الله ﷺ:" إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ" [رواه أحمد] .

وهاتان الآيتان قد جمعتا أسمى وأحكم ألوان الترغيب والترهيب ، لذا قال كعب الأحبار : لقد أنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ آيتين ، أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ، ثمَّ قرأ هاتين الآيتين.

وعَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، عَمِّ الْفَرَزْدَقِ. أَنَّهُ أَتَى النَّبِىَّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ، قَالَ: حَسْبِى ، لاَ أُبَالِى أَنْ لاَ أَسْمَعَ غَيْرَهَا." [رواه أحمد والنسائي] .

ربط الحُكم بالغاية منه

الله تعالى الله سبحانه وتعالى هو الخالق البارئ المصور الرازق ذو القوة المتين المحيي المميت الذي بيده ملكوت الأرض والسموات ﴿ هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٤] ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٥٥] ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨] لذا يجب على العبد أن يطيع خالقه فيما يأمر دون أن يسأل أو يناقش أو يعرف علة ما يؤمر به فالله تعالى ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١] فإذا كان لا حق للعبد على سيده إلا ما يتفضل به سيده عليه فما بالنا بالإله الأعظم الذي لا شريك له في ملكه ولا أمره ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] ومع ذلك فإن الله تعالى من رحمته بعباده قد ربط كل خلق كريم يدعو إليه أو تشريع حكيم يأمر به بالعلَّة منه والغاية المستهدفة من ورائه .

والقرآن الكريم يعنى عناية فائقة بأن يقرن كل حكم في الشريعة بما يسوغه ، ويربط كل تعليم بالقيمة الأخلاقية التي يتأسس عليها .

ولهذا كان على المؤمنين أن يتخذوا من التشريع الإلهي أكمل مرشد أخلاقي يمكن أن يهديهم إلى هذا الجوهر إذن المصدر الحقيقي للإلزام يكمن في فكرة القيمة الذاتية ، إنها أعقل ما في العقل ، وآخر مرجع للحاسة الخلقية .

ونسوق بعض الأمثلة لمنهج القرآن الكريم في هذا الشأن :

فحين يدعونا القرآن إلى قبول الصلح يؤيد دعوته بتلك الحكمة ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] ولكي يبرر قاعدة الحياء بغض البصر وحفظ الفرج يقول ﴿ذلك أزكى لَهُمْ﴾ [النور : ٣٠] وبعده أمره بتبين الأسباب قبل إصدار أي حكم يقول ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ على مَا فَعَلْتُمْ نادمين﴾ [الحجرات : ٦] وحين أمرنا بكتابة ديوننا ، يفسر ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة : ٢٨٢]

وفي توجيهه إلى التماس القيم الروحية بصفة عامة ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة : ١٠٠] ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ولكي يشهدنا على الأساس الذي صدرت عنه الشريعة الإلهية ﴿إِنَّ الله لاَ يَأْمُرُ بالفحشاء﴾ [الأعراف : ٨٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل:٩٠] (١)

(1) د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق ص ١٧، ١٨ .

والعقل الصحيح المنزَّه عن الهوى يقرُّ بكل أوامر الله ونواهيه ويدرك الحكمة العظمى والفائدة المحققة من ورائها ، وإذا حدث تعارض بين العقل والنقل فالخطأ إما أن يكون في عدم صحة العقل أو عدم صحة النص أو عدم صحة فهمه فلا تعارض مطلقاً بين العقل الصحيح والنص الصريح بل إن النص الصريح يدعو إلى إعمال العقل الصحيح. ولابن تيمية كتاب قيم في هذا بعنوان " درء تعارض العقل والنقل " .

لماذا جعل الإسلام عقوبات دنيوية على الجرائم الأخلاقية ؟

إن الإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل ؟ كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن؟ فالحرية النفسية والعقلية أساس المسئولية. والإسلام يقدر هذه الحقيقة ويحترمها ؟ وهو يبنى صرح الأخلاق.

فالعمل الصحيح في نظر الإسلام هو تحطيم القيود وإزالة الأثقال أولاً؟ فإذا جثم الإنسان على الأرض بعدئذ ؟ ولم يستطع سمواً ؟ نُظر إليه على أنه مريض ؟ ثم يُسرت له أسباب الشفاء . ولن يصدر الإسلام حكماً يعزل هذا الإنسان عن المجتمع إلا يوم يكون بقاؤه فيه مثار شرٍّ على الآخرين .

في حدود هذه الدائرة يحارب الإسلام الجرائم الخلقية ؟ فهو يفترض ابتداء أن الإنسان يحيا أن يعيش من طريق شريف ؟ وأن يحيا على ثمرات كفاحه وجهده الخاص أي أنه لا يبنى كيانه على السرقة. ما الذي يحمله على السرقة؟ احتياجه إلى ما يقيم أَوَدَه؟ فليوفر له من

الضرورات والمرفهات ما يغنيه عن ذلك. وتلك فريضة على المجتمع ؟ إن قصَّر فيها فألجأ فرداً إلى السرقة ؟ فالجريمة هنا يقع وزرها على المجتمع المُفرِّط ؟ لا على الفرد المضيع .

فإن كَفَلْتَ للفرد ضروراته ثم مدَّ بعد ذلك يده ؟ مَحَّصت حالته جيداً قبل إيقاع العقوبة عليه ؟ فلعل هناك شبهة تثبت أن فيه عِرْقاً ينبض بالخير ؟ والإبطاء في العقاب مطلوب ديناً ؟ فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " ادْرَءُوا الْحُدُودَ مَا اسْتَطَعْتُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ وَجَدْتُمْ لِلْمُسْلِمِ مَخْرَجًا فَخَلُّوا سَبِيلَهُ فَإِنَّ الإِمَامَ لأَنْ يُخْطِئَ في الْعَفْوِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِى الْعُقُوبَةِ " [رواه أحمد والبيهقي والترمذي وضعَّفه]

إذا تبيَّن من تتبع أحوال الشخص أن فطرته انحرفت ؟ وأنه أصبح مصدر عدوان على البيئة التي كَفَلَتْه وآوته بتعكير صفوها وإقلاق أمنها ؛ فلا ملام على هذه البيئة إذا حدَّت من عدوان أحد أفرادها ؟ فكسرت السلاح الذي يؤذى به غيره . (١)

***

(1) الشيخ محمد الغزالي " خلق المسلم " ص ٢٠ .